الأدب بين عالمين

للدكتور إبراهيم سلامة

نحن نعيش بين عالمين يتجاذباننا ويحاول كل منهما أن يردنا إلى ناحيته: «العالم الخارجي» و«العالم الداخلي». ولك أن تقول إننا لا نحيا متجاذبين بين هاتين القوتين، بل نحن نعيش فيهما؛ فلنا حواس تنقل ما تقع عليها، فتدرك العين المرئيات، والأذن المسموعات، واليد الملموسات. فحواسنا تنقل إلينا صور الحياة كما هي، ولكننا لا نعيش في هذا العالم المادي وحده، وإلا ضقنا به وتخلصنا منه، وكان من حرم حاسة من هذه الحواس كأنما أغلق أمامه باب من أبواب المعرفة بالحياة. وما هكذا خلقنا وما هكذا نعيش! فنحن نعيش أيضاً في عالم داخلي من إدراكنا لما تجلبه حواسنا، ومن تأويلاتنا لهذه المدركات بعد عرضها على ما فينا من عاطفة وميول ونوازع وتفكير نحلل به ما يرد إلى نفوسنا، وذكاء نرد به ما يرد علينا من العالم الخارجي إلى الناحية التي نجد فيها منفعتنا وصلاح شئوننا وغذاء عواطفنا. ومن هنا ما يقول «ديكارت»: من أن «الأشياء التي تحرك حواسنا تهيج فينا الميول المختلفة لا للاختلافات الكثيرة التي تدور بها المحسات، ولكن لاتصال هذه الاختلافات بنفعنا أو ضررنا».

ومن هنا أيضاً ما قاله «مال رانش» من أن حواسنا أمينة مخلصة في تعليمنا العلاقات المختلفة التي بيننا وبين ما يحيط بنا من الأشياء في العالم الخارجي؛ ولكنها مع أمانتها وإخلاصها لا تعطينا صورة صادقة عن كل ما نحس به، فما حواسنا إلا هبة إلهية لحفظ حياتنا».

فديكارت الفيلسوف ومال رانش الأديب متفقان على أن العالم الخارجي الذي تربطنا به حواسنا ليس عالمنا وحده، بل فينا ميول تهيج وتثار بتلك الآثار الحسية ليست صورة صادقة لما نحس به، فنحن نعيش أيضاً في عالمنا الداخلي الذي يحررنا من

والقارىء الساذج في حيرة بين الآراء المتصادمة، والأهواء المتقاتلة حتى يميل به طبعه أو هواه إلى جانب، أو تستمر به الحيرة والضلال.

إن كل من يمسك قلماً ليكتب في صحيفة يتصدى لأمر عظيم، ويتحمل تبعة جسيمة. فليتق الله في كل فكرة يفكر فيها، وفي كل كلمة يسطرها. ولينظر ما أثر فكرته وكلمته في أمته، وما حق هذه الأمة عليه.

وأما الدعوة فينبغي أن تكون إلى الأخلاق العالية والسنن الصالحة يُدعى إليها بكل وسيلة، وتسلك إليها كل سبيل. وينبغي أن يحذر كل الحذر من الدعوة، صريحة أو خفية، إلى التحلل من الأخلاق والفرار من التبعات؛ فإن النفوس قد احتملت أعباء الواجب وصبرت عليها ولم تبال بما فيها من مشقة وحرمان؛ ابتغاء ما هو أعلى وأشرف وأعظم؛ ابتغاء الحق والخير وإيثاراً لما هو أجل من خير الناس وصلاحهم. فإن ارتابت في هذه الأعباء الثقيلة ودعيت إلى الدعة، وإيثار الأهون عليها والأحب إليها، والاستجابة إلى الأهواء، والإخلاد إلى اللذات والخضوع للمطامع، والسكون إلى سفاسف الأمور والإشفاق من جليلها. صادفت الدعوة منها هوى ولقيت منها إصاخة واستراحة إليها باطناً وإن نفرت منها ظاهراً، إلى أن يضعف الوجدان الذي يحبب إلى النفس إيثار الأشق الأعظم من الأمور، وإلى أن تسِفّ الهمة التي تتقدم بالإنسان على الصعاب وتنأى به عن اللذات؛ استجابة للمعاني الجليلة التي يسيّر الله بها البشر إلى الكمال الذي قدره لهم.

إن الإنسان يعيش تحت أوقار من الواجبات وأوامر الأخلاق وتكاليف المجد، كما يعيش تحت أثقال من الضغط الجوي. فإن دعي إلى طرح هذه الأعباء واستراح إلى هذه الدعوة هلك كما يهلك إذا خف عنه ضغط الجو. ورب كلمة فاتنة أو قصة ساخرة تنقض في نفس الناشئ أو تزلزل كل ما أسست التربية في نفسه، وتاريخ البشر في فؤاده! فلينظر الكاتبون وليتقوا الله.

وأما التعليم فكذلك يعمل له الفكر والنظر، ويختار ما هو أنفع للناس وأقرب إلى الصواب من الأمور النفسية والآفاقية على هدى العلم، وإرشاد التجارب وهلم جرا.

ما أقدر الصحافة على الإصلاح! وما أقدرها على الإفساد! وما أكثر الصالح منها في عصرنا هذا وفي بلدنا هذا وما أكثر المفسد منها! فمن كان مصلحاً فليزدد إصلاحاً، ومن كان مسيئاً فلينزع من إساءته.

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

الخضوع للعالم الخارجي ، ويجعلنا عبيداً له عبودية العالم إلى الملاحظة والمشاهدة والاستقراء ، وعبودية التقليدي إلى قاعدته يلتزمها ويقيس بها مسائل العالم . والعالمان كما ترى مشتبكان متداخلان ، ولكن ينفرد العالم « بالعالم الخارجي » يستمده في الملاحظة والمشاهدة ، وينفرد الأديب « بالعالم الداخلي » يستغرق فيه ويتسع بطبيعته لتأملاته وتصوراته . إن الأديب الذي استمتع بمنظر من المناظر الجالية ، ثم جلس بعد مشاهداته إلى مكتبه إنما يجلس إلى تأملاته ، ويجلس إلى صور وتصورات قد تكون موادها الأولى من العالم الخارجي عالم المحسات ، وقد يزيد فيها وينقص بما يهبها من حيوية وخيال وإضافات لم تكن لها في عالمها الأول . والفرق بين الوقتين هو الفرق بين ما يسميه علماء النفس « بالخيال الاسترجاعي » و« الخيال الابتكاري » وإذا كان الخيال الثاني أسمى من الخيال الأول سمواً قد يصل إلى درجة الاختراع في الصور العقلية ، وإلى درجة الخلق والابتكار والإبداع في الصور الأدبية ، فذلك لأن الخيال الاسترجاعي يعتمد أكثر ما يعتمد على استعادة المحسات كما هي في العالم الخارجي ، في حين يعتمد الخيال الابتكاري على العالم الداخلي الذي يمده بكثير من القوى النفسية التي تعتبر أساساً للجدة والابداع .

إن عالم الحس ضاغط ملزم ؛ أما عالم الصور والتصور فحر طليق . إني أمام شجرة وقع عليها نظري لا بد لي من أن أراها لأنها وقعت على مدى نظري ؛ ولابد لي من أن أراها شجرة ، ولا يمكنني أن أقول إلا إنها شجرة . أما الأديب فله أن يقول « إنها كلمة طيبة كالشجرة الطيبة » وله أن يقول إن صاحبه الذي لا فائدة فيه كشجر السرو « له رواء وما له ثمر » ولابن الرومي أن يقول إن صاحبه جاف جامد كشجر الخلاف :

فغدا كالخلاف يورق للعيـــن ويأبى الأثمار كل الأباء

أن المحسات تتحكم في الأدب لأنها ضاغطة ملزمة كما قدمنا . فلا حرية للأديب أمام العالم الخارجي ، أما في عالمه الداخلي فحر طليق يتحكم في صوره حتى ولو جاءته من عالم الحس فيطاردها ويعمل أخرى عليها ويجمعها ويفرقها ويتركها أمامه ، تتجمع وتتفرق ، وتتناصر وتتزاحم ، وتتوالد وتتقلص ، ليؤلف خياله كما يريد ، أو لتطاوع هذه الصور خياله كما يريد أن يبرزها الخيال . فعالم الحس يعرف بشاراً ضخماً قوياً لو توكأ على جدار لانهدم الجدار ؛ ولكن بشاراً لا يرى في برديه إلا جسماً ناحلاً « لو توكأت عليه لانهدم » والناس تسمع المتنبي وتراه ملء العين وملء برديه ، ولكنه يرى نفسه ضئيلاً هزيلاً ، بل يريد أن يخائل الناس في حواسهم ليروه كما يرى نفسه من النحول والذبول ولولا كلامه ما كان في جسمه تمام يدل على حياته :

كفى بجسمي نحولا أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

إن « تين » شيخ المفتنين في الأدب والنقد إذا كان لا يرى في « الصورة » إلا أنها « إحساس ضعيف » ، وإذا كان « أبنجهوس » من علماء النفس يفرق بين الإحساس والصورة فيرى أنها باهتة مصفرة كأنها من مادة الأثير ، وإذا كان غيره من علماء النفس أمثال بهنس لا يرى في الصورة إلا مادة ضئيلة شفافة متشممة محيلة قابلة للذوبان بل للتبخير ، فأن الأدباء يحبون مثل هذه الصور ويرون فيها مادتهم المطاوعة للخيال ، ومن ثمّ للخلق والابتكار . لنحذر إذن علم النفس فلا نتورط في تقسيماته وقواعده إذا أردنا أن نحتفظ للأدب بمواده ؛ فإن الصورهي متاع الأديب ينضده كيفما شاء ويستمتع بمرآها ولو كان باهتاً مصفراً . إن علم النفس « بموضوعيته » الحاضرة التي يريد بها أن يثبت شخصه أمام غيره من العلوم يريد أن يضغط على « الذاتية » التي يعتز بها الأدب ولا يمكنه أن يتخلص منها لا في الانتاج ولا في النقد . فكما أن للأديب عالمه كذلك للأدب « علم نفسه » الذي لا يجب أن يخضع لعلم النفس الخاص دائماً ، بل له أن يتحكم فيه أحياناً . إن هذه الصور الباهتة قد تتجسم أمام الأديب حتى لتكون حقيقة ماثلة أمامه ، وحتى لا يستطيع أن يفرق مع تسلطها بين الحقيقة وبين الخيال ؛ وفي هذا الاتصال أو المزج سر الأدب . فأجمل ما تخيلت فيه لترجع بحقيقة ، وما حققت فيه لترجع بخيال . لحقيقة الأدب تبدو لجدتها أنها متخيلة ، وخيال الأديب يبدو لإمكان وتوهمه أنه حقيقة واقعة . فسر الجمال الأدبي في الإضافات التي نضيفها إلى العالم الخارجي ، وفي الثالية التي ندركها من الصور الداخلية سواء أكانت صوراً نفسية محضة ، أم صوراً خارجية تحولت إلى صور نفسية وباعدنا بينها وبين عالمها الأول بما أضفينا عليها من الثالية . إن الأدب وجماله في هذه الزيادة التي نضيفها إلى القيم الوجودية في العالم الخارجي ، وإلى القيم الاصطلاحية اللغوية . وإن الذوق الأدبي ليس في القيم اللغوية للألفاظ ولا في

القيم الحقيقية للمعانى ، بل فى القيمة التقديرية التى يهبها الأديب هبة للألفاظ وللمعانى ، أى فى القيمة التصويرية . وبعبارة حديثة فى الانسجام الذى نحسه فى الموسيقى ، ونحسه أكثر عند الشاعر ، وفى الملاءمة التى نحسها بين الألوان فى التصوير ، ونحسها أكثر إذا اختلطت هذه الألوان ونبا بها النظر ، وفى الفترات الزمنية التى نحسها فى التقسيم والوزن والفواصل وإيراد المعنى؛ هذا التقسيم المعبر عنه بالمقابلة أو Symetrie . وبقدر احتفاظنا بهذه التقديرية أو الإضافية تكون نظرتنا للأدب . فالأدب « الكلاسيكى » اهتم بالقيم الحقيقية وغالى فيها . والأدب « الرومانتيكى » اهتم بالقيم الإضافية والفردية التى نضيفها إلى القيم الوجودية الحسية والعقلية . وقد غالت الرومانتيكية فى أهمية القيمة الإضافية الجمالية فأصبح كل شىء فى نظرها فناً ، وكل ظاهرة ولو علمية فنية ؛ حتى لقد قيل إن الطبيعة نفسها عمل فنى ، وإن الكائن الحى نفسه فن . فالفن الحديث ليس فى إضافة قيمة جمالية إلى قيمة علمية فحسب ، بل فى اتحاد الفكرتين : العلمية والجمالية فى صورة تدرك فى العمل العقلى المستمر .

هذه المغالاة فى الرومانتيكية وهذا التعصب للكلاسيكية آثارا الأدباء والنقاد فى القرن التاسع؛ فإن سانت بيف Sainte Beuve وتين Taine وغيرهما بعد سنة ١٨٥٥ قاموا للمناداة بالحقيقة فى الأدب Le vrai وكانت قومة ضد الرومانتيكية وضد الكلاسيكية معاً ، وفى مصلحة مذهب « السريالزم » (الحقيقة) فى الأدب . لقد ابتدأ أنصار المذهب بوصف العالم الخارجى وحده فالتجأوا إلى الحياة نفسها يصفونها كما هى ، ويصفون الأحياء فى الأحيـــاء الفقيرة كما هم ، ولكنهم أخفقوا لأن الوصف كان لمجرد الوصف لا للحكم عليهم ولا للاهتمام بهم ، فكانوا كالنباتيين الذين ينظرون إلى المزروعات التى أمامهم من غير أن يميزوا بين أنواعها ولا بين الفروق البارزة فى هذه الأنواع . وكشفت هذه النهضة من أمثال ستاندال وبلزاك وفلوبير ممن جعلوا لهـذه المدرسة الحديثة معالم مقررة ، ثم بعد العمل الأدبى خيالياً محضاً أو فردياً محضاً بصدوره الأديب وهو فى حاله الداخلى من غير رعاية للحياة . فقد نادى فلوبير بأن الإنتاج الأدبى لا بد أن يكون موضوعياً وأن يكون فى نفس الأديب حكماً ذهنياً لما تعرضه الحياة مؤسساً على مصادر حقيقية يطيل الأديب فيها النظر ليتخير منها ما يريد (العالم الخارجى) هذه المصادر لا تشل الخيال ولا تعنه الحركة ، فإنه سيكون الرقيب على هذه المصادر والصور يتخير منها ما يتلاءم مع نفسه وخياله (العالم الداخلى) ، فكان فلوبير يجرى هنا وهناك وراء الحقيقة التى تتفق وأحلامه ، وبذا ينتقل عمله الأدبى من أن يكون مجرد وصف أو مجرد تحليل علمى إلى أن يكون خلقاً وابتكاراً . لهذا أسبغ فلوبير على أدبه نوعاً من المنطق ولكنه منطق الحياة ، واقترض كثيراً من الصور العقلية للطب والفلسفة ، ولكنه لم يقترض من الطب والفلسفة قوانين بل اقترض منهما معنى الحياة . وأعمال الأبطال فى رواياته تبدو طبيعية كما تبدو المسببات من الأسباب ، فالوسط والظروف والأمزجة التى تعيش فيها شخصياته الروائية هى التى تقودهم بدوافعها وتعقدها وتطلعاتها ورغائبها إلى مصائرهم ، وكأنها أسباب لنتيجة حتمية واقعية . وهذه الحقيقة أو هذه الواقعية فى الموضوع قادت أسلوب فلوبير إلى الصورة المعبرة والكلمة الحقيقية والوزن المنسجم والرقابة على خياله حتى لحق أسلوبه بالكلاسيكية فى كثير من مظاهره ، وبعد عن الرومانتيكية بإعتماده على الواقع؛ فقد كان يجمع بين حقيقة العبارة والكلمة فى معناها الحاضر ، وبين حقيقتهما فى معناها الدائم المعروف .

وكان إدموند ، وجول دى كونكور ، من أصحاب نظرية المصادر Theorie du document (العالم الخارجى) ولكنهما لم يقفا موقفاً قاراً بارداً أمام هذه المصادر ، فكانا فنانين تلهب أعصابهما وتتألم آلام الإنسانية (العالم الداخل) فابتكروا صوراً وكلمات جديدة وأخضعاها لأحاسيسهما وخيالهما حتى قادهما هذا الازدواج من ناحية إلى مذهب الطبيعة Naturalisme ، ومن ناحية أخرى إلى مذهب التأثريين Impréssionnisme

بعدما تقدم نتكر الأدب ونتكر رسالة الأديب بل نتكر طبيعة النفس إن حاولنا أن نجعل من الأدب أداة وصفية لما يقع تحت أسماعنا وأبصارنا لنكون واقعيين من غير أن نتعرض لما تحدثه هذه المناظر والمشاهد فى نفوسنا من ألم وامتعاض أو لذة ومسرة ؛ ونتكر رسالة الأدب ونمنع عنه مدداً عزيزاً إن حاولنا أن نصف نفوسنا وأن نعرضها فرضاً على قارئينا فى غير رعاية للواقع وللحياة . إن الذكاء فى آخر تحليلاته معناه إدراك العالم الخارجى والداخل معاً ، فالذكى هو الذى أدرك شيئاً ما وأدرك أنه المدرك لذلك الشىء . وللأدب ذكاؤه وحساسيته .

دكتور إبراهيم سلامة